## الدكتور عبد الرحمن اللبّان طبيباً نفسانياً
## ومثقفاً واسع الثقافة وصديقاً للمثقفين

تعرفت إلى الدكتور عبد الرحمن اللبّان في أواخر خمسينيات القرن الماضي. عرّفني إليه صديقان مشتركان هما: الأديب محمّد عيتاني، والأديب محمّد دكروب. وعندما التقينا بعد ذلك بعشر سنوات أصبحنا صديقين حميمين. واستمرّت هذه الصداقة تنمو وتتعمّق وتغتني مع الحياة، إلى أن غيّبه الموت المفاجئ. ففقده شعبه ووطنه، وفقده أصدقاؤه الكُثُر، وأنا منهم. وأدرك الجميع شعور عميق بالخسارة، وبالعبء الثقيل الذي يولّده الموت المفاجئ وللغياب الأبدي لمثل هذا النوع من المثقفين والمتعددين في مجالات النشاط والإبداع الإنسانيين. لم يكن الدكتور عبد الرحمن اللبّان طبيباً إنسانياً وحسب. كان إلى جانب مهنته في الطب، صاحب مشروع إنساني معروف هو دار العجزة، ورئيساً لجمعيةالنجدة الشعبية. وكان فوق ذلك أديباً وفناناً، متعدد ميادين المعرفة والإبداع. وكان، في الوقت عينه، رجل سياسة، وصاحب رأي وموقف. كان ديمقراطياً بامتياز. وبتلك الصفات والمواقع وميادين العمل والإبداع، اكتسب الدكتور اللبّان سماته التي عُرف بها، والتي خلقت منه، منفردة ومجتمعة، ذلك الإنسان الرائع الذي هو الدكتور عبد الرحمن اللبّان.

وفي الواقع فقد كان الدكتور اللبّان، كطبيب، مرجعاً حقيقياً، مرجعاً إنسانياً للكثيرين على امتداد حياته. وميزة الطبيب الإنساني تكمن في قدرته على امتلاك ثقة الذين يعودون إليه، وحبهم وتقديرهم. وقد عرف الدكتور اللبّان، من خلال معايشته اليومية لمشاكل الناس العاديين في مدينة بيروت، وهو أحد أبنائها الأصيلين، كيف يدخل من دون تكلُّف أو افتعال، بحكم مهنته كطبيب وفيلسوف وعالم نفس، وبصفته أديباً وفناناً وباحثاً اجتماعياً، وبصفته رجل سياسة ديمقراطي، ان يدخل في غور الأشياء وفي قلب الأحداث اليومية. وعرف كيف يغوص في هموم الناس وفي أعماق النفس البشرية. وهو ما أهّله لأن يستخلص ويكثّف، بالتجربة الشخصية مجموعة من المعارف والمبادئ والقِيَم، أرسى على قاعدتها علاقاته المتراكمة والمتسعة بمستوياتها المختلفة، مع جميع الأوساط الاجتماعية. وحين ابدع الأديب محمّد عيتاني في رسم تلك الصورة الصادقة الجميلة لبيروت ذلك الزمان في قصصه التي ضمّها كتابه المعروف "أشياء لا تموت"، إنّما كان يسهم، مع صديقه الدكتور اللبّان، في اكتشاف تلك الملامح المميّزة لبيروت ولناسها الطيبين. وكانا كلاهما، القصّاص والطبيب، قد وُلدا في السنوات الصعبة السابقة داخل أسوار بيروت. وأعطيا لمدينتهما بشخصيتيهما المميزتين، بعضاً

من نكهتها، وبعضاً من خصوصيتها التي تعرف بها في لبنان، ويعرفها بها محبّوها في العالم العربي وفي العالم.

لكن الدكتور اللبّان، الطبيب والعالم النفساني والناقد الاجتماعي والمنخرط، منذ وقت مبكر، في مواساة العاجزين وهم على أبواب نهاية العمر، هو الذي حفّزني ذات يوم في ذات عام في أواخر السبعينات من القرن الماضي إلى المبادرة، باسم أصدقاء "جمعية النجدة الشعبية" لكي أقترح عليه ترؤس تلك الجمعية. وكانت الجمعية قد بدأت تملأ أرجاء الوطن بنشاطها الإنساني في خدمة الفقراء. لم يتردد الدكتور اللبّان في قبول المسؤولية، رغم أنّه كان وزيراً للعمل وللشؤون الاجتماعية. إذْ هو اعتبر أنّ وجوده على رأس مثل تلك الجمعية المدنية إنّما يشكّل استكمالاً لدوره في وزارته. فالمؤسسات المدنية هي، من وجهة نظره وبحق، مكمّل طبيعي لدور الدولة الديمقراطية الحديثة.

أمّا الوجه الآخر من شخصية الدكتور اللبّان، الوجه الثقافي، فقد يمتد الحديث عنه طويلاً، ويتشعّب، إذا ما حاولت الدخول في عالمه الغني ذاك. فالدكتور اللبّان معروف، بأنّه صديق للفنانين المبدعين، الموسيقيين منهم بوجهٍ خاص، وصديق كذلك للفنانين التشكيليين. وإذا كان معروفاً، ربما على نطاق ضيق، بأنّه فنان تشكيلي، فإنّه، بالمقابل، لم يكن موسيقياً، أي أنّه لم يؤلّف ألحاناً، ولم يمارس العزف على الآلات الموسيقية. لكنه كان صاحب معرفة واسعة بتاريخ الموسيقى، لا سيما العربية منها. وكان صاحب ذوق موسيقي رفيع. وقد أسّس، على امتداد سنوات طويلة، مكتبة موسيقية غنية، وأرشيفاً ضمَّ الكثير من الأشرطة الموسيقية والغنائية لأروع وأعظم ما أنتجه الموسيقيون العرب من ألحان وأغانٍ ومسرحيات غنائية، قديماً وحديثاً. وكان باسم تلك الثقافة وذلك الذوق الموسيقيين، صديقاً للرحابنة، عاصي ومنصور وفيروز، ثم صديقاً لزياد. وكان، في الوقت عينه، على علاقة دائمة بسائر المؤلّفين الموسيقيين والملحنين والمغنين، على تعددهم وتنوُّع إبداعاتهم في لبنان وفي سائر البلدان العربية. ولم يوفر جهداً إلاّ وبذله لكي يقدم للناشئين من اللبنانيين الموهوبين أقصى ما يستطيع من مساعدة على النمو والتطور. ولن أنسى، في هذا السياق، أن أشير إلى تلك السهرة الجميلة الممتعة التي استضافنا فيها في منزله، بصحبة الشيخ إمام عندما كان هذا الفنان العربي يزور لبنان للمشاركة في أعياد الذكرى الستين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني. ففي تلك الليلة التي امتدت طويلاً غنّى لنا الشيخ إمام كل ما كان يحمله صوته الرائع من ألحانه وأغانيه، ومن ألحان وأغاني سيد درويش وسائر رموز ذلك الرعيل المبدع من موسيقيي ومطربي مطالع القرن الماضي. واستمتع، هو، معنا بأصوات هؤلاء الروّاد مسجّلة على أشرطة كان قد اعتنى بدقتها ونقاوتها الدكتور اللبّان.

أمّا إبداع الدكتور اللبّان في الفن التشكيلي فقد كان ميدان صراع بينه وبين أصدقائه. ذلك أنّه كان يرفض عرض لوحاته إلاّ في منزله. وكان يخفي في محترفه المنزلي القسم الأساسي من هذا النتاج الغني. ربما سيكون للنقّاد، عندما يشاهدون لوحاته، رأي مختلف عمّا تكون لديّ من انطباعات، ومختلف عمّا كان مصدر الإلهام عند اللبّان في الرسم، أي ثقافته وتجربته. ولكنني سأتجاوز احتمالات النقد الفني لأعماله، واحتمالات الاختلاف فيه لأقول بأنّ الدكتور اللبّان، الفنان التشكيلي، قد حاول في بعض ما شاهدته من رسومه، تقديم أنماط وأشكال وألوان وأفكار عن صور كانت تحتشد في عالمه الداخلي، وتشكّل تعبيرات عن ثقافة وعن معرفة بالحياة، وعن تجارب كوّنتها وأغنتها علاقاته المتنوعة بالناس وبمآسي عوالمهم الداخلية الدفينة. ولأنّه كان يعتبر أنّ هذه الأشكال والصور والأفكار والألوان هي انطباعات شخصية وتعبيرات ذاتية تخصه هو وحده، ولأنّه لم يكن يمارس الرسم كحرفة، ليس بالمعنى الوظيفي للكلمة بل بمتعة ممارسة الرسم كهواية فقط، فلم يكن يعتبر نفسه واحداً من أسرة الفنانين التشكيليين، أو هكذا فهمت منه خلال جدالاتي الطويلة معه حول هذا الموضوع. وظلّ يرفض، حتى آخر لحظة من حياته، عرض لوحاته مثلما يفعل سائر الفنانين التشكيليين، وكانت لي معه، في بعض سهراتنا الحميمة مع بعض الأصدقاء المشتركين في منزله وفي منزلي، شفيق الحوت وحسين حمدان ومهدي عامل وآخرين، معارك حول هذه المسألة لم تنتهِ. وكانت زوجته السيّدة عادلة تقف إلى جانبنا في المعارك. وترفض مثلنا تفسيراته وتبريراته وتقييماته. وأذكر أنّنا قررنا، ونحن نتذكّره، في إحدى الجلسات الحميمة في منزله مع زوجته وابنته بعد وفاته بفترة قصيرة، أن نعد لإحياء ذكراه، في شكل مختلف عن الاحتفالات التذكارية، وأن يكون أحد أشكال الاختلاف في إحياء الذكرى، الاختلاف معه بالذات حول فنّه التشكيلي، بإقامة معرض في إحدى صالات العرض، يضم لوحاته كلّها، وإصدار كتاب يتضمّن كتاباته، وبعض شهادات من أصدقائه وعارفيه. فنعيد، من خلال هذا التكريم، التذكير بجوانب من حياته ونشاطه وإبداعه، لم تكن معروفة للجميع، وأعترف أنّنا تأخّرنا بتنفيذ هذا القرار، وقصّرنا بالقيام بواجب الوفاء بحق له علينا.

إلاّ أنّ الدكتور اللبّان، كما أشرتُ آنفاً، لم يكن طبيباً، وحسب. ولا هو فناناً وحسب، بل كان، كذلك، سياسياً ديمقراطياً، وصاحب رأي وموقف في كل ما يتعلق بالشأن الوطني. وإذا كانت السياسة في لبنان، بتعقيداتها وبما أدخل فيها من تشويهات خلال الحرب الأهلية، وما تلاها، من أثقال على المثقفين الديمقراطيين، فإنّ الدكتور اللبّان لم يمارسها في الحكومة إلاّ بضع سنوات. وكان في ممارسته لها مختلفاً. إذْ هو جهد لكي يظل محتفظاً بصفته كمثقف ديمقراطي وكطبيب إنساني وكفنان. وحين خرج من الحكومة إلى الحياة العامة، التي كانت حقل نشاطه الأساسي، كانت قد

تكوّنت لديه جملة من الدروس والاستنتاجات. ولعلّي لا أتجاوز الموضوعية إذا ما أنا فهمت من تلك الدروس والاستنتاجات بحكم العلاقة الحميمة معه التي كادت تكون علاقة يومية، أنّه ادرك بحسّه العميق أنّ السياسة هي ثقافة في الدرجة الأولى، وأنّ المثقف هو سياسي، حتى ولو لم يمارس السياسة، حتى وهو ينقضها ويتمايز عنها. لذلك كان يجهد، في السنوات الأخيرة من حياته، بتعميق اهتمامه بالسياسة على قاعدة تجربته واستناداً إلى فهمه وتحديده للسياسة ولمعناها. وقد أُتيح لي أن أناقش معه هذه الأمور في جلسات خاصة.

وأذكر أنّنا التقينا، قبل وفاته وبدعوة منه، لمناقشة بعض القضايا السياسية والثقافية الراهنة. وكانت مثل تلك اللقاءات تتكرر دائماً. وكان من بين ما ناقشناه في تلك الجلسة بالتحديد فكرة إصدار كتاب يتضمن بعض كتاباته. وقدّم لي نماذج منها لقراءتها. وكنت سعيداً بقراره. فشجعته وألححت عليه في إنجاز العمل. وذكّرته، في الوقت عينه، بضرورة الإعداد للمعرض الأول لرسومه. تباحثنا، خلال ذلك اللقاء، في أمور سياسية عديدة. لكننا اكتفينا بتبادل الهموم، من دون أن نفقد الأمل بالمستقبل، مؤكّدين على مسؤوليتنا، كل منّا من موقعه، في إعادة الاعتبار للقِيَم التي شوّهتها الحرب، والتدخلات المتعددة المصادر والجنسيات في بلدنا المعذب، الذي كان قد تحوّل إلى ساحة معارك وتجارب. يومها أخبرني بأنّه انتُخب، أو عُيّن، في المجلس الشرعي الإسلامي مستشاراً للمفتي الراحل الشيخ حسن خالد. وحين سألني رأيي في ذلك التعيين أو الانتخاب قلت له بأنّ اختياره لهذا الموقع هو دليل ثقة من جهة، ومسؤولية من جهة ثانية. وأكّدت له بأنّ بإمكانه أن يلعب دوراً مهماً، من موقعه ذاك، استناداً إلى الثقة التي أُعطيت له، في كبح جماح بعض الاتجاهات السلفية المتطرفة، وأن يسهم، ولو بحدود معيّنة، في بلورة اتجاه عقلاني في المواثيق التي تصدر عن دار الإفتاء حول القضايا ذات الطابع التوحيدي للوطن اللبناني وللدولة وللمجتمع. وكنت، في ذلك، صادقاً مع نفسي ومعه موقعي السياسي. وصادقاً في علاقتي مع اللبّان، وصادقاً في فهمي للدور الذي كان على دار الإفتاء أن تلعبه في تلك الظروف الدقيقة الصعبة، وأن تلعبه كذلك المراكز الدينية الأخرى في تعزيز وحدة الوطن والشعب والدولة ومؤسساتها، قبل أن تستريح وتعود إلى ميدانها الخاص بها خارج التدخل في الشأن السياسي.

تلك كانت إشارات لبعض جوانب متفرقة من شخصية الدكتور عبد الرحمن اللبّان، أحببت أن أتحدث عنها، وأنا أتذكّره في لحظة صفاء وجداني.

يسأل سائل، في ضوء ما عرضته من بعض جوانب علاقتي بالدكتور اللبّان، ومن خلال ما قدّمته من بعض جوانب من شخصيته ومن مواقفه ومن مجالات نشاطه: هل كان عبد الرحمن اللبّان

يسارياً، بالمعنى المتعارف عليه عندنا؟ هل كان متأثراً بالفكر الماركسي؟ هل كانت تربطه علاقة سياسية، أو تنظيمية، بالحزب الشيوعي اللبناني؟

وجوابي البسيط على هذا النوع من الأسئلة التي تُطرح بسذاجة أحياناً، أو تُطرح لأغراض سياسية معيّنة أحياناً اخرى، هو أنّ الدكتور عبد الرحمن اللبّان، الطبيب والمثقف والفنان والسياسي، إنّما كان في كل نشاطاته ومواقفه يسارياً مستقلاً. ومن موقعه الديمقراطي واليساري هذا كان على مسافة واحدة من الجميع، من حيث الانتماء. لكنه كان يعرف كيف يختار صداقاته، من كل الاتجاهات. وكان حريصاً على هذه الصداقات، من دون أدنى مواربة أو التباس. لذلك لم يكن مستغرباً، قط ، أن يحظى، في آن واحد، بثقة مفتي الجمهورية، وثقة أصدقائه في الجمعيات الأهلية، وثقة أصدقائه في النقابات العمالية، وثقة أصدقائه في وسط المثقفين اليساريين عموماً، والشيوعيين خصوصاً.

ذلك هو الدكتور عبد الرحمن اللبّان. ولو لم يكن كذلك لما رأينا هذا التنوع والتعدد في جمهور أصدقائه الواسع.